«شكري فيصل المتذوق الأمهر
مقاربته للأدب»

د. عبد النبي اصطيف
جامعة دمشق

مستلة من

مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

العدد (٣١)
ذو القعدة ١٤٠٦هـ- ربيع الثاني ١٤٠٧هـ

السنة العاشرة
تموز- كانون أول ١٩٨٦م

«شكري فيصل المتذوق الأمهر[١] : مقاربته للأدب»

د. عبد النبي اصطيف
جامعة دمشق

أمارة وفاء

اسمحوا لي بادىء ذي بدء أن أحيي «اتحاد الكتاب العرب» ممثلا برئيسه، وأعضاء مكتبه التنفيذي، على هذه البادرة النبيلة التي تشي بالكثير من الوفاء لعضو بارز من أعضاء الاتحاد- الوفاء، هذه القيمة التي تخضع في أيامنا هذه إلى قسط كبير من الترشيد Rotioning، والتي تفتقدها في مختلف جوانب حياتنا، والثقافي منها على نحو خاص.

والحديث عن الوفاء في جلسة مخصصة لتأبين شكري فيصل ليس استطراداً تمليه اللياقة، لأن المرء إذا ما أباح لنفسه أن يغض طرفه عن كل ما قدمه الرجل، وهو أمر لا يجرؤ عليه إلا مكابر أو جحود، فإنه لن يستطيع أن يغض طرفه عن سمة واضحة وضوح الشمس فيه، هي وفاؤه الذي كان دينه ومعتقده حتى أنه طبع رؤيته للعالم. وغني عن القول أنه ترك بصمات واضحة على آثاره التي تبقى من أهم ما تركه للأجيال القادمة التي طالما أرقه مستقبلها.

ويتجلى هذا الوفاء أوضح ما يتجلى في مظهرين متصلين بعضهما ببعض هما.

١ - إشاراته التي لا يفتأ يكررها في مقدمات أعماله(*) لأساتيذه ولغيرهم ممن ساهم على نحو أو آخر في إخراج هذه الأعمال إلى الفور، لا يغادر في ذلك حتى عمال المطبعة الذين نضدوا له حروف كتبه.

(*) يلاحظ المرء بأسف شديد هذه الأيام أن كثيراً من مقدمات الكتب الجامعية التي كانت رسائل جامعية- للماجستير والدكتوراة- تخلو من إشارة واضحة إلى أصولها، أو من تقدير لائق بمن أشرف عليها. وكأن هذه الإشارة، وذاك التقدير ينتقصان من قيمة ما فيها، أو مكانة مؤلفيها، ناسين أن قيمة أية رسالة جامعية تكمن- إضافة إلى جهد صاحبها- في منزلة الشيخ الذي قرأ صاحبها عليه.

٢ – **أنه كان يبدأ في كل موضوع يطرقه من النقطة التي انتهى إليها الآخرون**، وليس من نقطة الصفر، كما هو شأن الكثيرين من باحثي هذه الأيام الذي يجدون غضاضة في أن يعودوا إلى إسهامات غيرهم، ويراجعوا ما فيها ويستوعبوه ويكملوا بعد ذلك الشوط الذي بدأته، ولكنهم بالمقابل يدفعون ثمن ذلك تكراراً عقيماً، وجهداً بعيداً عن الجدوى، وسعياً محدود الثمار، وزرعاً ممجوج الأكل.

ورغم ذلك فإنه – رغم حرصه الشديد هذا على الوفاء للآخرين ممن سبقوه إلى دراسة أية ظاهرة أو قضية أو موضوع – لم يكن ليكتفي بمتابعة خطواتهم، والأنس بالآفاق التي حاولوا استشرافها، والقناعة بها. إذ إنه كان يحاول دائماً أن يتجاوزهم التجاوز الإيجابي الذي يعلم أن العصر الذهبي[٢] للإنسانية لم يمض **بعد – كما** ألح على ذلك أوفيد، وأنه قابع في نقطة ما، قريبة أو بعيدة من هذا التيار الجارف – الزمن، وأن السعي والجهد وحدهما الكفيلان ببلوغها.

خارجي يبحث عن هامش الأفضل

والواقع أن وراء مسعى شكري فيصل في مختلف الآفاق التي ارتادها تأليفاً وتحقيقاً، كان ثمة فكر ناقد على درجة سامية من الدقة والمرونة والمقدرة، **يؤمن بأن في كل عمل إنساني هامشاً للتطوير والتحسين وأن من واجب المرء أن يوجه مسعاه وجهده لتحقيق هذا الهامش**. ولعل هذا – فيما يبدو لي – كان سبب كون شكري فيصل في حياته كلها، ورغم كل ما يبديه من لطف ورقة وتهذيب ودماثة، الخارجي **the Outsider** الذي لا يرضى بوضع قائم على أنه الوضع النهائي، الوضع المثال والمآل، إذا ما استعرنا عبارة الدكتور أحمد عروة.

نعم كان خارجياً في الجامعة وفي المجمع وغيرهما، ليس لأنه يحب التفرد، ولو أحبه لغفرنا له، ولكن لأنه كان يعتقد بوجود هذا الهامش الذي أشرت إليه، ولأنه كان دائماً يحاول بلوغه، وإني لأشهد، كما يشهد غيري، أنه كثيراً ما بلغه.

وربما كان من أهم إجراءاته التي يستخدمها في مسعاه هذا :

١ - أنه كان يراجع ما سبق إليه ويحاول استيعاب ما فيه من مؤشرات إيجابية وسلبية .

٢ - وأنه كان بعد ذلك ينقده ما وسعه علمه وفكره وجهده ووقته وقدرته .

٣ - وأنه يمضي بعد هذا يقدم البديل ، النموذج ، يمهد السبيل به للآخرين .

٤ - وأنه في النهاية لا يفتأ يراجع هذا البديل بين الحين والآخر ، يعاوده بالتنقيح والإضافة واستكمال النواقص ، وسد الثغرات ، ينظر إليه بعين ناقدة كما نظر من قبل إلى عمل غيره ، باحثاً عن الأفضل دوماً يتجاوز به حتى نفسه ، وقليل من هم كذلك .

إشارتـــان :

لست أريد أن أمضي طويلاً في هذا الحديث النظري عن شكري فيصل ، ولا سيما أن الرجل ، وأشرف بانتسابي إلى مدرسته ، كان لا يطيقه ، ولذلك نراه غالباً ما يمضي عنه راغباً إلى التطبيق ، إلى النصوص ومواجهتها . فكم كانت تروقه ، وكم كانت حصيلتها تروق الآخرين ممن أتيح لهم حظ مواجهتها ، في محاضرة ، أو لقاء ، أو برنامج إذاعي ، أو مرئي ، أو في مقابسة ، أو في كتاب . ولهذا فإني سأنتقل إلى إشارتين مقتضبة وموسعة قليلاً ، أوجز في الأولىٰ إذ سيكفينيها صديق لزم شكري فيصل على مدىً عقود عدة ، وأتوسع قليلاً في الثانية إذ كانت ألصق بمسعاي في الجامعة وخارجها .

١ - فأما الإشارة الموجزة فهي إلى عمل شكري فيصل في التحقيق[٣] . إن من يتتبع هذا العمل منذ بداياته في **الخريدة** ، إلى **ديوان أبي العتاهية** ، إلى **ديوان النابغة** ، إلى **ابن عساكر** ، سوف يلاحظ ما ذكرته بوضوح . ورغم أن المرء لن يجد على وجه الإجمال إلا عبارات الإطراء والتهنئة والتشجيع يسوقها إلى محقق **الخريدة** ، إلا أنه لا يسعه إلا أن يبحث عن عبارات أبلغ ، يحاول أن ينصف بها الرجل ، عندما ينظر في **ديوان أبي العتاهية** ، ويخونه سعيه عندما يأتي إلى **ابن عساكر** ، الذي بلغ فيه شكري فيصل ، ومن ساعده من تلامذته شأواً بعيداً ، يمكن أن يعتبر بحق مفخرة للمحققين العرب ، الذي يتكئون - في هذا العصر - على غيرهم حتى في مضمار دراسة ثقافتهم وأدبهم .

وردهم لنشوة الفرح الغامر بهذا الإنجاز العظيم الذي كان حصيلة عمل دؤوب لسنين طويلة، فإن الغرور لم يداخله. وهكذا وجدناه يختم مقدمته المؤثرة قائلاً:

«وبعد، فما أكثر ما يخالط أعمال الإنسان أحياناً من هوى، وما يداخله من حظ النفس، وما أبعد ما يتطلع إليه دائماً من آفاق... فلنسأل الله سبحانه، ضارعين، أن يباعد بيننا وبين الأهواء، وأن يسقط من نفوسنا حظ نفوسنا حتى يبقى العمل خالصاً لوجهه، وأن يمدنا بالعون على تحقيق ما نتطلع إليه ليكون ذلك وفاءً لبعض حقه علينا... في تراثنا الذي نجل، وتاريخنا الذي نقدر، ومستقبلنا الذي نرجو.

وحين نراجع الآن أكداس التجارب*، وحين ننظر في صور الأصول وخطوطها، لا نملك إلا أن نتوجه إلى الله سبحانه بالشكر على ما كان من تيسيره وتوفيقه، والضراعة إليه أن يقسم لنا من الخير فيما نستقبل أضعاف أضعاف ما قسم لنا فيما مضى، وأن يجعل حظنا من التوفيق لما فيه مرضاته أطيب الحظوظ، وهو الهادي إلى سواء السبيل. «**ربنا لا تُزِغ قُلوبَنا بَعدَ إذْ هَدَيتنَا، وَهَبْ لنا من لَدُنكَ رحمة إنّك أنْتَ الوهّاب**» (٤)

٢ – وأما الإشارة الموسعة إلى حد ما، والمتصلة بمسعاي، **فهي دراسة الأدب العربي وتدريسه على الوجه الأنجع**. والحقيقة أن تتبع مسعى شكري فيصل في **هذا الاتجاه مثير وشائق ودال**؛ مثير بوقائعه، وشائق بتطوره، ودال بتضمناته.

حسّ نقدي مبكر في «مناهج الدراسات الأدبية»:

لقد بدأ هذا المسعى برسالة شكري فيصل لدرجة الماجستير، والتي قدمها إلى كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول يومئذ، وجامعة القاهرة الآن، ونوقشت في الأول من تموز عام ثمانية وأربعين من قبل لجنة برئاسة الأستاذ المشرف أمين الخولي، وعضوية الأستاذين مصطفى السقا ومحمد خلف الله أحمد، وكانت بعنوان:

(*) وهي أكداس بالفعل كما يعرف كل من واكب هذا العمل من قريب أو بعيد.

«مناهج الدراسة الأدبية: عرض ونقد واقتراح»(٥)

هذه الرسالة التي وقفها على مراجعة مختلف النظريات التي تصدت لدراسة الأدب العربي: النظرية المدرسية، ونظرية الفنون الأدبية، ونظرية الجنس، ونظرية الثقافات، ونظرية المذاهب الفنية، والنظرية الاقليمية، ونقدها، ليخرج على الناس في نهايتها بمنهج جديد. وربما كان من أشد الأمور إثارة وأبلغها دلالة، أن الرسالة مكرسة، في جانب معتبر منها، لنقد آراء الأستاذ المشرف على إعدادها. ولنصغ إلى شكري فيصل يحدثنا عن لقاءاته بأستاذه المشرف وإلى ما انتهت إليه:

«ووجدتني في خلال ذلك ألقى أستاذي الأسبوع بعد الأسبوع والمرة بعد المرة، فأتحدث معه، وأستمع إليه، وأناقشه، وأفيد منه، ووجدتني بعد ذلك أرتضي منه شيئاً وأخالفه في شيء، وأحاوره في مسألة وأجادله في غيرها، حتى انتهى بنا الأمر إلى شيء كبير من خلاف في الرأي وتباين في الطريق... وصبر الأستاذ الخولي على هذا الخلاف صبر المطمئن إلى رأيه من نحو، والمطمئن إلى صاحبه من نحو آخر، واصطبرت كذلك اصطبار الواثق بنفسه والواثق بأستاذه أنه لن يخلفه أول الخطوط التي التقيا عندها واتفقا فيها، لأنها أول الخيوط التي تقوم عليها الحياة، والتي لا تقوم حياة إلا بها... **وذلك هو إتاحة الحرية في الرأي أبعد الحرية، وإتاحة المخالفة في النظرة أشد المخالفة، والاعتماد على أن الغاية من الإشراف ليست تكرار النماذج المتماثلة، وإنما هي إحياء العناصر الشخصية وتنمية الفردية الذاتية، والبلوغ بالقوى إلى أقصى غاياتها وأبعد مراميها.** »

«وكذلك ظلت هذه الرسالة أشهراً تنتظر المناقشة.. ولكن أسبوعاً من هذه الأشهر لم يخل من حديث فيها ونقاش حولها... ولم يكن من سبيل إلى أن ألتقي مع أستاذي في الرأي... ولم ننته إلى تطابق، ولكن ذلك لم يضرنا في شيء، فلم يكن هذا التطابق بين الأستاذ المشرف وصاحبه هو الذي ينشده من إشرافه أو يسعى إليه.»